والاستغفار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إنها الثمرة من « لا إله إلا الله » . ومادامت هذه هى الثمرة من « لا إله إلا الله » فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنبطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد شهد أنه لا إله إلا الله ،وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

ولنأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها : لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ، أى أنَّ الحق قد أخبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك . إن « شهد » بمعنى علم .

إنه الحق الذى نصب الأدلة فى الوجود على قيوميته ، وعلى أنه إله واحد ، أليس فى ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذى خلق الأدلة وجاء بها ؟ إنه الله . إذن ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . وقلنا : إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هى شهادة الذات للذات ، وشهادة الذات للذات تعنى أنها كلمة مُمكَّنٌ منها . فعندما يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

بالله لو لم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك من يعارض مبتغاه ، أكان يجازف فيقولها ؟ إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعة

أن يقول : « كن » فإنه قد علم ، أنه لا يوجد إله آخر يقول : « لا تكن » . إن الحق لابد أن يطمئننا أنه لا إله إلا هو ، لذلك فلزم أن يشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو . إننا نجد أن من أسماء الله الحسنى « المؤمن » . بماذا يؤمن الله ؟ إنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر ، ويلقى الحكم التسخيرى ، ويعلم أنه لا إله يعارضه .

وأليس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله ؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى صلاته : « أشهد أن محمدا رسول الله » . ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التى يقولها ؟ ولذلك فسيدنا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا ، قال ما معناه : أقالها محمد ؟ إنه صادق ، ومادام قد قالها فهى حق .

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذى سبق بعث محمد بالرسالة . ونحن نرى فى التاريخ امرأة كان السبب فى إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم . قرأت هذه المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمنى من الناس فاذهبوا أنتم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفتح جاء من الحق لامرأة ، فشغلتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يحرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : « لا تحرسونى » لأن الله هو الذى يحرسنى ؟ فلو أن رسول الله قد غش الدنيا كلها ؛ أكان من الممكن أن يغش نفسه فى حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها : لا يمكن ، لابد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة فى أن الله قد أبلغه أمر حمايته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمن أن يأتى أحد ليقتله ؟ قالت المرأة : والله لو خدع الناس جميعا ما خدع نفسه فى حياته ، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . حدث إسلام هذه المرأة من نفحة يسيرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو » هى شهادة الذات للذات ، وكفى بالله

شهيدا . وشهدت الملائكة أيضا ، والملائكة هم الغيب الخفى عنا ، وتتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحدا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هى شهادة المشهد . ويضاف إلى الملائكة « أولو العلم » ، لقد أخذ « أولو العلم » الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله فى القمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولو العلم . ولقد أخذ أولو العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قد نثر فى كونه الآيات العجيبة العديدة ، والذى يجلس ، ويتفكر ويتدبر ، ويتفطن وينظر ، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكما قلنا من قبل : إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت « لا إله إلا الله » صدقا فقد كفينا ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذى أخذ منه الله هذا الكون ، ولم يخبرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فإما أن هذا الإله الآخر لم يدر ، أو أنه قد علم ، ولا يستطيع فعل شيء ، إذن فلا يصح أن يكون إلها يزاحم الحق الذى أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل « لا إله إلا الله » لصاحبها - جل شأنه - « شهد الله أنه لا إله إلا هو » وفى كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطى علوا ، وقد يعطى استكبارا . . لذلك نقول : ها هو ذا الخالق الأعلى الذى « لا إله إلا هو » يخبرنا أنه قائم بالقسط . ورغم أنه لا أحد فى استطاعته أن يتدارك على الله ، إلا أنه يطمئننا أنه قائم بالقسط .

ولنلحظ هنا ملحظا جميلا فى الأداء « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » لماذا لم يقل الله إن « الملائكة » و« أولو العلم » ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو « قائمين » بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا بهذه القضية . . لماذا ؟ لأن الله لو قال : « قائمين بالقسط » لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هى له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه فى ذلك لما استقام الأمر ،

وأولو العلم أيضا مخلوقون بالقسط ، لأن الله قد وزع حركة الحياة على الناس ، فَنَاسٌ يعملـون بعقـولهم ، وآخرون يعملـون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو لون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعى أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التى تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلا من أن يعتمد الإنسان على نفسه فى صناعة الملبس والمأكل ، والمشرب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر . . فأتقنت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذى يكفيهم ، ويسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان ـ بمفرده ـ لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ، ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المتنوعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشرى ، فواحد يزرع الأرض ، وثانٍ يغزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ، لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع فى المواهب ليربط الناس بالناس قهرا عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفضلا على أحد ، فمادام واحد يعرف فى مجال ، وآخر لا يعرف فى هذا المجال ، فالذى لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغما عنهم .

ولذلك نجد الكون متكاملا . ولينظر كل منا إلى حياته وليعدد كمْ زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى تخدم حركة الحياة ؟

إن هذه الزوايا موزعة على الناس جميعا ليخدموا جميعا حركة الحياة . وهذا قمة العدل . وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وكيفية العدالة فى إقامة المحبة والاحترام بين البشر ، فلينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل بينه وبين نفسه : أهذا الرجل البعيد عنى يعمل من أجلى ؟ وتكون الإجابة : نعم .

إذن ، فعلى الإنسان عندما يرى إنسانا متفوقا فى صنعة ما ، فليقل : إن تفوقه فى

صنعته عائد إلىّ وتفوقه فى موهبته عائد إلىّ ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكاتفين قهرا عنهم ، لا تفضلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه فى زاوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التى يحسنها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الريفى الذى يقول : « باب النجار مخلع » ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنفعه هو ، بدليل أن الموهبة التى عندك لم تنتفع أنت بها إلاّ قليلا .

وبذلك يشيع فى الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحل المحبة والاحترام بدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء : ولماذا يكون باب النجار هو « المخلع » ؟ قال أحد الظرفاء ردا عليه : لأنه الباب الوحيد الذى لن يأخذ النجار أجرا لإصلاحه ، ونلتفت إلى العجائب فى الحكمة الشائعة ، فنجد أطباء اخصائيين فى ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما فى مجالات تخصصاتهم ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كأن الذى برعوا فيه لم يفدهم هم بشىء ، إنما أفاد الآخرين . ولننظر إلى الآية فى مجملها :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد استهلها الله بقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ثم قال بعد ذلك : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فكأن الآية تقول لنا : إذا ثبتت شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارا نهائيا لاشك فيه ، فخذوها مسلمة : « لا إله إلا هو » .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلها فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغْلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فأستعن بالله ،

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفعت الأقلام، وجفت الصحف »[1] .

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله فى جدال . إنما يدخل خلق الله مع خلق الله فى خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يدخل فى نضال مع الله لأنه عزيز لا يغلب . فإن آمنت به وحده ، فلك الفوز . وكلمة « وحده » قد تبدو فى ظاهرها تقليلا للسند الذى تستند إليه فى القياس البشرى ، فيقال : « أنا لاجىء إلى فلان وحده » وعندما تكون لاجئا إلى عشرين ألا تكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة « وحده » هنا تغنيك وتكفيك عن الكل . اعمل لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يغلبه على أمره .

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متفرد صمد ، وهو عزيز لا يُغْلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة فى وضع الأشياء فى مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فأنت تتعجب من عظمة قدرة الله ، لأن الحكمة هى وضع الشيء فى موضعه ، ومادمت قد وضعت الشيء فى موضعه فإنه لا يكون هناك قَلَقٌ ، ومادام الشيء موضوعا فى مكانه فهو مستقر ، ومادام الشيء مستقرا فإنه لا يتلون وتزداد الثقة فيه ، وهذه مأخوذة من « الحَكَمَة » التى توضع فى فم الفرس ، والتى نسميها « اللجام » وهى كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإن مال إلى غير الاتجاه الذى تريد ، يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح .

إن وجود الحكمة يعنى وجود شيء يحكمه فلا ينحرف يمينا ولا يسارا ، ومادام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهت القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو ، وأنه العزيز الحكيم ، فكل منهج منه يجب أن يُسلم إليه ، وأن ينقاد له . ومادام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد ، أى لا يوجد له

---

(١) رواه الترمذى .

شريك ينازعه فيما يريد من خلقه ، وليس لله شريك فى الخلق ، وليس لله شريك فى الرزق ، وليس له شريك فى التشريع .

إذن .. فالجهة التى نستمد منها مقومات منهجنا هى جهة واحدة ، وكان من الممكن أن تظلم وتجور هذه الجهة الواحدة الخالقة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من خلق الله حق على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه يطمئننا ، فهذه الوحدانية بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا تظلم ، لأنه قال : مع أنى إله واحد ، لا يُرد لى حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

والقيام بالقسط يجب أن نتوقف عنده لنفهمه جيدا ، إن الحق يقول عن نفسه : « قائما بالقسط » وكلمة قائم تعنى أن الله قد خلقهم الخلقَ الأول ، وهذا الخلق إنما قام على العدل والقسط . وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل والقسط يقتضى ميزانا لا ترجح فيه كفة على كفة ، وهذا الميزان ممسوك بيد القدرة القاهرة التى لا توجد قوة أعلى منها تميل فى الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط فى الخلق ، فقبل أن يخلقنا أعدّ لنا ما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة قائما على الأسباب التى يكلفنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا من الأمور لا دخل لنا نحن العباد فيها ، ولم يقض الحق بذلك على حركتنا ولا على حريتنا فى الحركة ، لذلك خلق لنا أسبابا إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسببات ، وإن شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والمسببات .

إذن .. فالحق سبحانه لم يحكمنا فى قضية الخلق الأولى بشىء واحد ، بأن يجبرنا على كل شىء ، بل جبرنا بأنه ـ سبحانه ـ لم يدخل أسبابنا ولا حركتنا فى كثير من الحركات التى تترتب عنيها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ، ولا المطر . كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أن توجد له حياة ؛ لتمهد للحياة التى يهبك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوجد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة القدرة على الحركة فى الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان ـ وهو سبحانه الإله القادر ـ تحرك

التنفس إلى أن توجد له إرادة . ولا توجد الإرادة إلا إن وُجد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يغذى الدم والمخ وينقى الدم والجسم من الأشياء التى تضره ، هذا يقتضى العلم ، فإذا كان هذا الأمر يقتضى العلم . فماذا يصنع الطفل الذى ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس ـ على سبيل المثال ـ بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقض على مخلوقه بأن يجعله فى الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره .

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمنع تخييرا . وذلك هو العدل المطلق . لقد احترم الحق كينونة الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشيئة الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ، لأنك إن تدخلت فيها أفسدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا ـ الحق ـ أريدُها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذى أمنحه لك ، لذلك جعلتها بيدى أنا الخالق المأمون على خلقى . ولكن لن أقضى على حريتك ، فإن أردت ارتقاءً فى الحياة فتحرك فى الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل فافعل . وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : « قائما بالقسط » مشتملا على التكليف أيضا ، أى إن عدالته فى التكليف مطلقة . فأناس يقولون : « لا إله » وأناس آخرون عددوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين . هو إله موجود يا من تقول : « لا إله » . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيام بالقسط . وجاء الحق سبحانه فى الأحكام . نحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلبا باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان ونجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان ، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حرا طليقا يعربد فى الكون كما يشاء ، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار .

لقد جعل الله للإنسان مجالا فى القسر ومجالا فى الاختيار ، أوجد فى الإنسان القدرة على الحركة فى الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان ـ وهو الإله القادر ـ تحرك

فى الحياة وأنا أحمى نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لى فى مالك الذى جعلتك فيه خليفة حق عليك أن تعطى بعضا منه لأخيك المحتاج .

لقد أعطى الحق للنفس البشرية أن تكد ، وأعطى لها أن تكدح ، وحفظ لها ما تملك ، ولكنه هو الحق لم يُطلق للنفس البشرية عنانها ، بل قال : لى حق فى ذلك . وهكذا نجده سبحانه قد عدل فى هذا الأمر .

إذن فقول الحق إنه قائم بالقسط . . نجده واضحا فى كل شىء ؛ ففى الخلق والرزق والتكليف نجد أنه قائم بالقسط ، ومادام هو إلها واحدا وقائما بالقسط . فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

بعد أن قال لنا : إنه إله واحد ، وقائم بالقسط هو نتيجة منطقية لكونه ـ سبحانه ـ إلها واحدا فكأن قوله « إن الدين عند الله الإسلام » هو نتيجة لقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » . لماذا ؟ لأنه لا تسليم لأحد إلا الله ، ومادام الله إلها واحدا ، فلا إله غيره يشاركه ؛ يقول الحق :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ومادام قد ثبت أنه هو الإله الواحد ، فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ إذن فقول الحق بعد ذلك : « إن الدين عند الله الإسلام » هو أمر منطقى جدا يجب أن ينتهى إليه العاقل ، ومع ذلك رحمنا الله سبحانه وتعالى فأرسل لنا رسلا لينبهونا إلى القضية السببية ، والمسببية ، والمقدمة والنتيجة « إن الدين عند الله الإسلام » وإذا سألنا : ما هو الدين ؟ تكون الإجابة : إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهى من « دان » تقول : دنت لفلان : رجعت له وأسلمت نفسى له ، وائتمرت بأمره . ويُطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : « يوم الدين » وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية ، وعلى أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلها تلتقى فى قول الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يُشعرنا بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس ، ولكنها ليست أديانا عند الله ؛ ألم يقل الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝ ﴾

(سورة الكافرون)

إن معنى ذلك أن هناك دينا لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن ليس دينا لله ، ولا دينا عند الله . إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام . والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطلوبة فلك أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة ، والخضوع ، وما يترتب عليها من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما ينتظم ذلك فليسمها الملة .

إذن فقوله سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » تعنى أنه لا دين عند الله إلا الإسلام ، وكلمة « إسلام » مأخوذة من مادة « سين » و« لام » و« ميم » . و« السين » و« اللام » و« الميم » لها معنى يدورفى كل اشتقاقاتها ، وينتهى عند السلامة من الفساد . وينتهى المعنى أيضا إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه ، إنه صلاح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، ومادامت المادة المكونة منها كلمة « إسلام » تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها ؟.

لقد قلنا سابقا : إن الإنسان لا يخضع لمثيله إلا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان

يقول لمساويه الذى يأمره : لماذا تريدنى أن أنفذ أوامرك ؟ إنك لابد أن تقنعنى بالحكمة من ذلك الأمر ، لكن عندما يؤمن الإنسان بإله واحد قائم بالقسط ، ويصدر من هذا الإله أمر ، فعلى الإنسان الطاعة .

إذن . . فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بعزة وفهم ، وعزة وتعقل ؛ لأن هناك عبودية تَعَقّل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحى ، وهناك عزة تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أى شىء سوى الخضوع للأمر الثابت الذى لا يتناقض أبدا .

فمادام الله إلها واحدا قائما بالقسط فإنى كعبدٍ من عبيده حين أؤمن به وآخذ عنه ، فهذه عزة فى الفهم وعزة فى التعقل ، وعزة فى العبودية أيضا ، لأننى أعبد الله الذى هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساويا لى ، وإن الذى يعبد مساويا له لا يملك إلا إنفة وحميّة الذليل، ومادام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله فهو خضوع لغير مساو ، و« أسلم » أى دخل فى السلم ، أى دخل فى الصلح ، وعدم التناقض ، وفى الأمان والراحة ، أى خلص نفسه من كل شىء إلا وجه الله ، ولذلك يقول الحق :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

كأن الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع لِسادةٍ كثيرين . وضرب الله لنا المثل بالأمر المشهور عندنا ، فقال ما معناه : هب أن عبدا له من السادة عشرة ، وكل سيد له منه طلب ، فماذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد آخر له سيد واحد ، هذا العبد يكون مستريحا لأنّ له سيدا واحدا ، بينما الآخر المملوك لعشرة تتضارب حياته بتضارب أوامر سادته العشرة .

إذن فالعبد المملوك لشركاء تعيس ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء

متشاكسون ، فإذا رآه سيد يفعل أمرا لسيد آخر ، أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعبه ، ولكن الرجل السلم لرجل ، هو مستريح ، وكذلك التوحيد ، لقد جاء الحق سبحانه بمثل من واقعنا ليقرب لنا حلاوة التوحيد . إن العبد المؤمن بإله واحد يحمد الله لأنه خاضع لإله واحد . إذن فما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام ومعناه الدخول فى السلم بكسر السين ـ أو الدخول فى السلم ـ بفتح السين ـ يقول الحق :

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

هذا الخضوع ليس لمساو ، بل لأعلى . والأعلى الذى نخضع له هو الذى خلق ، وهو الأعلى الذى أمدنا بقيوميته بكل شىء . إذن فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله . إن من مصلحة الإنسان أن يسلم . « إن الدين عند الله الإسلام » ومادام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذى يترتب عليه الثواب والإسلام هو دين الرسل جميعا ، وكلهم قد آمن به ؛ فإبراهيم خليل الرحمن قد قال :

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويعقوب عليه السلام يخبر الحق عنه فى قوله لبنيه وإجابتهم له :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فالإسلام دين شائع ، والمسلمون كلمة شائعة فى الأديان ، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله فى منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات ، إلا أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسالات كان وصفا ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بديمومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة ، وصار الإسلام ـ أيضا ـ علما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام فى الأرض ، فلم يعد هناك مزيد عليها ، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علما عليها .

إذن فالإسلام فى الأمم السابقة كان وصفا ، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علما لأنه لم يأت بعدها دين ، فإسلامها إسلام عالمى، ولذلك فنحن بهذا الدين نقول : « نحن مسلمون » أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط . نحن الذين نتبع الدين الخاتم سمانا الله فى كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسمية التى وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه :

﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ
مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟

﴿بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة الحج)

لقد صار الإسلام اسما لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يُطلق هذا الوصف اسما إلا على من بالغ فى التسليم . كيف ؟ نحن نعلم أن لفظ « الله » علم لواجب الوجود ، ونعلم أن « حى » صفة من صفات واجب الوجود . ونعلم أن « قادر » صفة من صفات الله سبحانه وتعالى . ولكن صارت كلمة « حى » اسما من أسماء الله ، لأن الله حى حياة كاملة أزلية . إذن لا تكون الصفة اسما إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة والإطلاق . وعلى هذا القياس يكون الرسل السابقون على محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمم السابقة على أمة الإسلام ، كانوا مسلمين ، وكانوا أمما مسلمة بالوصف ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بالإسلام وصفا وعَلَما ، فصار الأمر بالنسبة إليها اسما ، ونظرا لأنه لن يأتى شىء بعدها ، لذلك صار إسلام أمة رسول الله « علما » . ولقد بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا الأمر :

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

إن الحق قد أورد على لسان سيدنا إبراهيم بالوضوح الكامل « هو سماكم المسلمين » ولم يقل الحق : « هو وصفكم بالمسلمين » . لا ، إنما قال : « هو سماكم المسلمين » ، لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام وأما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهى مسماة بالإسلام . وتجد من إعجازات التسمية ، أننا نجد لأتباع الأديان الأخرى أسماء أخرى غير الإسلام ، فاليهود يسمون أنفسهم باليهود نسبة لـ « يوها » . ويقولون عن أنفسهم : « موسويون » نسبة إلى موسى عليه السلام . والمسيحيون يسمون أنفسهم بذلك نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم . ولم نقل نحن أمة رسول الله عن أنفسنا : « إننا محمديون » . لقد قلنا عن أنفسنا : « نحن مسلمون » . ولم تأت على لسان أحد قط إلا هذه التسمية لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار اسم الإسلام لنا شرفا . إذن ، فقول الله الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يعنى أنه ، إن جاز أن يكون لرسول أو لأتباع رسول وصف

الإسلام فقد يجيء رسول بشيء جديد لم يكن عند الأمم السابقة فنزيده نحن بالتسليم ، وبزيادتنا ـ نحن المسلمين ـ بهذا التسليم خُتِمَ التسليم بنا نحن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا صار الإسلام لا يُطلق إلا علينا .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الذين أوتوا الكتاب قد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولماذا اختلفوا ؟ جاءت الإجابة من الحق . الأعلى : (بغيا بينهم) وكلمة الاختلاف هذه توحى أن هناك شيئا متفقا عليه ، ومادام الإسلام هو خضوعا لمنهج الله . لأنه إله واحد وقائم بالقسط ، فمن أين يوجد الاختلاف ؟ وما الذى زاد حتى يوجد اختلاف ؟ أبرز إلهٌ آخر يناقض الله فى ملكه ؟ لا لم يحدث . ومادام الإله واحدا ، ومادام المنهج القادم من عنده منهجا واحدا ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

إن الحق يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم وتلك هى النكاية ، وذلك هو الشر ، فلو كانوا قد اختلفوا من قبل أن يأتى إليهم العلم لقلنا : « إنهم معذورون فى الاختلاف » . ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من الإله الواحد القائم بالقسط فلنا أن نقول لهم : ما الذى جَدَّ لتختلفوا ؟ إن الذى جَدَّ هو من عالم الأغيار ، ومادام الجديد قد جاء إليهم من عالم الأغيار ، فمعنى ذلك أن هوى النفس قد دخل ، ونريد أن نعرف أولا - معنى الاختلاف ، الاختلاف فى حقيقته هو ذهاب نفس إلى غير ما ذهبت إليه نفس أخرى .

ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد ، وهو قائم بالقسط ؟ لابد لنا أن نستنتج أن شيئا جديدا قد نبت ، ما هو هذا الشيء ؟ إنه الهوى المختلف ، وحينما يقال : « اختلفوا » فنحن نعلم أن جماعة قد ذهبت إلى شيء وجماعة أخرى ذهبت إلى شيء آخر . وقد نستنتج أن طرفا قد ذهب إلى حق ، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل ، أو أنهم جميعا قد ذهبوا إلى باطل . والذهاب إلى الباطل قد يختلف ، لأن كل باطل له لون مختلف . هل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : أنا أنزلت الأديان، ومن رحمتى بخلقى تركت بعضا من الناس يحتفظون بالحق فى ذاته وإن طرأ عليهم أناس يختلفون معهم . وتجد المثال لذلك فى اليهود ، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اختلفوا ، وأسلم منهم أناس وآمنوا برسالة النبى الخاتم ، بينما

الآخرون لم يسلموا ، ومن أسلم هم الذين كانوا على الحق ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الذين علموا برسالة رسول الله أن يعلنوا البشارة فى كتبهم ولم يكتموا ذلك العلم بل أعلنوا الإيمان ، بينما أصر البعض الآخر على كتمان ما جاءهم من العلم وأصروا على الإنكار . إن الذين أسلموا هم الذين ينطبق عليهم قول الشاعر :

إن الـذى جـعـل الحقيـقـة علقـما

لم يخـل من أهـل الحقيقـة جيـلا

وإذا كان الله قد عصم الأجيال المتتالية من أمة الإسلام بأن حفظ لنا القرآن . ففى الأديان الأخرى كان هناك أناس من أهل الحقيقة ، وأنصفهم الله :

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد أنصفهم الله حق الإنصاف ، والذين آمنوا برسول الله من أتباع تلك الديانات قد اهتدوا إلى الحق ، واختلفوا مع غيرهم وقول الحق : « أوتوا الكتاب » هذا القول يقتضى أن نقف عند « أوتوا » ونقف عند « الكتاب » وقفة أخرى ، إن قول الحق « أوتوا » أى أن شيئا قد جاء إليهم من جهة أخرى . إذن فالكتاب ليس من أفكار البشر ، لأن المنهج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلفوا فيه أو حوله ، وبناء « أوتوا » للمفعول يجعلنا نسأل : من الذى آتاهم الكتاب ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه وتعالى لا يأتى بمختلف فيه .

ومادام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف . يقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ من سورة النساء)

وكأن الله ينبهنا بذلك القول إلى أن كل شيء ينبت من البشر للبشر ، فلابد أن تحدث فيه خلافات . إنما الشيء عندما يأتى من الواحد الأحد لا يمكن أن يحدث فيه خلاف أبدا . لا يمكن أن يحدث خلاف فيما اتحد فيه المصدر والمنبع إلا إن وجدت ـ بضم الواو وكسر الجيم ـ أشياء زائدة عن ذلك ، وهذه الأشياء الزائدة هى أهواء الذين يقولون : إنهم منسوبون إلى الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الكتاب لم يأت إليهم من بشر مثلهم ، إنما من إله واحد قادر، وفى هذا تنبيه لأتباع الديانات السابقة. أى إنكم أيها الأتباع لا تتبعون إلا منهج الله ، وحين تتبعون منهج الله الذى جاء به الرسل فأنتم لا تتبعون أحدا من الخلق ، لأن أى رسول أرسل إليكم إنما جاء ليبلغكم بمنهج قادم من ربكم ، ولم يقل لكم أحد من الرسل إن المنهج قادم من عنده والرسول يحمل نفسه على الطاعة والخضوع للمنهج المنزل عليه قبلكم ، وهذه عزة لكم ، وليتنبه جميع الخلق أن المنهج الحق دائما قد أخذه الرسل من الله .

وحين يقول الحق : « الكتاب » فلنا أن نعرف أن كلمة « الكتاب » قد وردت فى القرآن الكريم فى أكثرمن موضع ، إن الحق سبحانه وتعالى يسمى القرآن مرة « قرآنا » لأنه يقرأ ، ويسميه الحق أيضا « الكتاب » وذلك دليل على أنه يُكتب ، وحين نقول : إن القرآن من (القراءة) فهذا يعنى أن نبرز ما فى الصدور بالقراءة ولكن ما فى الصدور قد تلويه الأهواء ، لذلك يحرس الحق قرآنه بما فى السطور ولذلك فالقرآن مقروء ومكتوب .

وعندما يقول الحق (من أهل الكتاب) ، فإن ذلك تنبيه لنا أن الكتاب هو منهج مكتوب ، أى لم يتم وضعه فى الصدور ونسيته النفوس ، لا ، إنه منهج مكتوب ، هكذا حدد الحق أمر المنهج السابق على القرآن ، إنه مكتوب ، فإن لعبت أهواء النفوس كما لعبت ، فإن ذلك يعنى تحريف الكلم عن مواضعه . ولنا أن ننتقل الآن إلى معرفة « العلم » : ما هو العلم ؟ إن العلم هو أن تدرك قضية وهذه القضية واقعة فى الوجود تستطيع أن تقيم الدليل عليها ، وغير ذلك من القضايا لا يصل إلى مرتبة العلم لأنه لا يستطيع أحد أن يدلل عليه .

مثال ذلك : نحن نقول : « الأرض كروية » إن كروية الأرض هى نسبة

حدثت ، ونقولها ونحن جازمون بها . والسابقون لنا فى عصور سابقة قال بعضهم : « إن الأرض مسطحة » ، وحاول أن يجد من الأسباب ما يقيم الدليل على ذلك ، ولكن الذين أقاموا الدليل على أن الأرض كروية كانوا صادقين بالفعل . وفى العصرالحديث صارت كروية الأرض أمرا مرئيا من سفن الفضاء ، وغيرها من الوسائل ، ونحن نعرف أنه « ليس مع العين أين » إن الكروية بالنسبة للأرض ، هى نسبة ، نقولها ونجزم بها ، والواقع أنها كذلك ، ونستطيع أن نقيم على ذلك الدليل .

هذا هو العلم المستوفى ، إن فساد الناس أنهم يأتون إلى قضية لم تصل إلى هذه المرتبة ويسمونها « علما » كقولهم : إن الإنسان أصله قرد ، لا ، إن أحدا لا يستطيع الجزم بذلك ، وتلك قضية ليست من العلم ، إن كلمة « علم » تطلق على القضية المجزوم بها ؛ وهى واقعة فى الوجود ، ونستطيع أن ندلل عليها ، وإذا كانت القضية مجزوما بها ؛ وواقعة فى الوجود ، ولكنك لا تستطيع أن تدلل عليها ، فماذا تسمى هذه القضية ؟ هذا ما يطلق عليه « تقليد » تماما كما يقلد الولد أباه قبل أن ينضج عقله فيقول : « لا إله إلا الله ، الله واحد » . ومثلما يأخذ التلميذ عن أستاذه القضية العلمية ، ولا يعرف كيفية إقامة الدليل عليها ، فهذا نطلق عليه « تقليدا » ، وإلى أن ينضج عقل التلميذ ويحسن استيعابه نقول له : ابحث بحثا آخر لتقيم الدليل .

إذن فالتقليد هو قضية مجزوم بها ، وواقعة ، ولا يوجد عليها دليل . وهكذا نعرف أن « العلم » يمتاز عن التقليد بوجود القدرة على التدليل ، لكن إذا ما كانت هناك قضية ومجزوم بها ولكنها ليست واقعة ، فماذا نسمى ذلك ؟ إن هذا هو الجهل . إن الجهل لا يعنى عدم علم الإنسان ، ولكن الجهل يعنى أن يعلم الإنسان قضية مخالفة للواقع ومناقضة له . أما الذى لا يعلم فهو أمىّ يحتاج إلى معرفة الحكم الصحيح ، فالجاهل أمره يختلف ، إنه يحتاج منا أن نخرج من ذهنه الحكم الباطل ؛ ونضع فى يقينه الحكم الصحيح ، وهكذا تكون عملية إقناع الجاهل بالحكم الصحيح هى عملية مركبة من أمرين ، إخراج الباطل من ذهنه ، ووضع الحكم الصحيح فى يقينه .

ولذلك فنحن نجد أن تعب الناس يتأتى من الجهلاء ، لا من الأميين ، لأن الجاهل هو الذى يجزم بقضية مخالفة للواقع ومناقضة له ، أما الأمىّ فهو لا يعرف ، ويحتاج

إلى أن يعرف . وماذا يكون الأمر حين تكون القضية غير مجزوم بها ، وتكون نسبة عدم الجزم ، مساوية للجزم ؟ هنا نقول : إن هذا الأمر هو الشك ، وإن رجح أمر الجزم على عدم الجزم فهذا هو الظن ، وإن رجح عدم الجزم يكون ذلك هو الوهم .

إذن فوسائل إدراك القضايا هى كالآتى : أولا : علم . ثانيا : تقليد . ثالثا : جهل . رابعا : شك . خامسا : ظن . سادسا : وهم . والعلم هو أعلى المستويات فى إدراك القضايا . ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا اختلف الذين أوتوا الكتاب ، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولم يقل الحق : إنهم اختلفوا بعد ما جاءهم التقليد أو الظن ، أو الجهل أو الشك ، إنما قال الحق : إنهم قد اختلفوا من بعد ما جاءهم الاستيفاء الكامل ، وهو العلم . ومادام هناك أمر قد جاء من القائم بالقسط والإله الواحد ، فالمسألة القادمة منه وهى الحق قد وصلت إلى مرتبة العلم .

إذن ، ففيم الاختلاف ؟ لابد أن أمرا ما قد جدّ . والذى يجدُّ إنما هو قادم من الأغيار ، وهى الأهواء ، ولذلك يحدد لنا الحق هذا الأمر بقوله : « بغيا بينهم » . ما البغى ؟ البغى هو طلب الاستعلاء بغير حق . إذن فطلب الاستعلاء ليس ممقوتا فى ذاته ، لأن طلب الاستعلاء هو قضية الطموح فى الكون . وأن يطلب إنسان الرفعة فيجد ويجتهد ، ويبذل العرق ليصل إلى مكانة علمية أو غيرها ، فهذا حق طبيعى ، ونحن نعرف أن العالم قد ارتقى بالطموحات الإنسانية ، إن العالم لو اكتفى وثبت عند الذى وصل إليه فى جيل ما ، فإن العالم يحكم على نفسه بالجمود . ولكن الناس طورت فى العالم الذى تحياه بجهد يذله البعض منهم فى قضايا نافعة ، ثم حاولوا أن يرتقوا بها ونالوا حقهم من التقدير ، وارتفعوا بالعلم بجهد حقيقى بذلوه ، وبدراسة لما بذله السابقون عليهم .

إذن فطلب الاستعلاء فى حد ذاته غير ممقوت ، بل محمود مادام قائما على الجهد . لكن أن يطلب الإنسان الاستعلاء بغير حق ، فهذا هو البغى . لقد أثبت الله لنا فى هذه الآية ، أن كل خلاف بين رجال دين ، أو بين دين ودين ، إنما مرجعه إلى نشوء البغى ، ونشوء البغى هو طلب رجال دين الاستعلاء بغير حق . ومظاهر طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء الفتاوى التى توافق أمزجة القوم ، وتخالف ما أنزله الحق .

إن الواحد من هؤلاء يدعى لنفسه التحضر ، ويعطى من الفتاوى ما يناقض الذى أنزله الله ، ويدعى أنه يأخذ الدين بروح العصر ، ويدعى لنفسه عدم الجمود ، ويذهب إلى حد اتهام المتمسكين بدينهم بأنهم متخلفون ، والهدف الذى يختبىء فى صدر مثل هذا الإنسان هو الاستعلاء فى قومه بغير الحق ، ويجب أن نفهم أن كل خلاف بين أهل دين واحد ، أو بين دين ودين ، منبعه قول الحق : « بغيا بينهم » . وهذا يعنى اتباع البعض للهوى النابع من بينهم ولم ينزله الله .

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى إمّا أن ينزل حكما محكما لا رأى فيه لأحد ، ولا يستطيع أحد أن ينقضه ، وإما أن ينزل الله حكما قابلا للفهم والاجتهاد . ولم يجعل الله الأحكام كلها من لون واحد ، إنما جعل الأحكام على لونين ، وذلك حتى يحترم الإنسان ما وهبه الخالق له من عقل ، ويجعل له مهمة ، فيأتى بقضية ويبحثها ويرجح سببا على سبب . وفى ذلك استخدام من الإنسان لعقله ، إنها رحمة من الله حتى لا يجمد العقل الإنسانى .

إذن فإذا رأيت أى خلاف بين رجال دين أو بين دين ودين فاعلم أن القول الفصل فى هذا الأمر هو ما عبر عنه القرآن : « بغيا بينهم » فمن البغى يهب الهوى الذى تنشأ منه الأعاصير ، إن من يحب الاستعلاء بغير الحق هو الذى يحاول البغى فيدعى لنفسه أنه أرقى فى الفكر ، أو يستعلى عند من يملكون له أمرا ، أو يستعلى عندما يوافق حاكما فى رأى من الآراء ، ويبرر للحاكم حكما من الأحكام .

إن كلمة « بغيا بينهم » يدخل فى نطاقها كل موجات الخروج عن منهج الله ، والتى نراها فى الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة ضد الأمراض النفسية الناشئة عن البغى ، مثلما يعطى المعاصرون المصل ضد أمراض البدن التى تفتك بالإنسان ، وحتى لا تفاجئنا أمراض البغى ، نجد الرسول يعطينا المناعة

فيقول لنا صلى الله عليه وسلم : (البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[1] .

ويحذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كما فى الحديث التالى :

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد ومسلم والترمذى .

فيقول صلى الله عليه وسلم : (البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون)[١] .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحذرنا ليوضح لنا أن أهل البغى لهم لجاج فى أن يقولوا ويصدروا الفتاوى ، وما معنى الإفتاء الذى يحذرنا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل هو مجرد رأى ؟ أم هو رأى يأتى من إنسان معروف عنه أنه مشتغل بعلم الله وبالأحكام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينبهنا إلى ذلك مناعة لنا . فقد يصبح أصحاب الحق قلة ، وليس لهم نصيب فى إيصال رأيهم للناس ، أو أن الذين يملكون الكلمة الإعلامية ليسوا مع أصحاب الحق بل فى جانب رجل يساير الباطل أو الركب .

وهنا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة حتى لا ييأس المتمسكون بالحق ، فأمر الدين لن يمر رخاء ، أو بسلام دائم ، بل سنجد قوما يفسرون أحكام الدين بغيا بينهم ، ويلوون الأشياء ، لذلك أوضح لنا أن المؤمن حَكَمٌ فى نفسه ، ويحذرنا من الذين يفتون بالبغى ، إن الافتاء يحتاجه الناس من الذى يعلم ، ولذلك جاءت كلمة « يستفتونك » أكثر من مرة فى القرآن الكريم ، لأن الذين يطلبون الفتوى هم الذين يحتاجون إلى توضيح لأمر ما ، لأنهم مشغولون بقضية الإيمان ، ولذلك فالنبى صلى الله عليه وسلم يحذرنا من الذين يحاولون إلقاء الفتاوى ، ويحذر كل مؤمن من أن يستمع لكل فتوى .

ويقول الحق : « ومن يكفر بآيات الله » . إذن فمن هو الذى يكفر بآيات الله ؟ وفى أى مجال ؟ إن الكفر بآيات الله هنا محدد فى الاختلاف ، وفى البغى بينهم ، أى طلب الاستعلاء بغير حق ، وسمى الحق كل ذلك « كفرا » والمراد منه هنا التنبيه لنا ألا نستر أحكام الله بالاختلاف أو البغى ، وجاء التحذير فى تذييل الآية بقوله : « فإن الله سريع الحساب » . فإياك أن تستطيل أمر الجزاء وتقول : سأستمتع بنتيجة البغى والاختلاف لخدمة من يهمهم أمر الاختلاف ، ويهمهم أمر البغى ، لأنك تريد أن تتعجل أشياء تظن أنها نافعة لك ، لكن ها هو ذا الحق سبحانه يحذرك أن تستبطىء حسابه ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يأتى لك الحساب من الله فى الدنيا ،

(١) رواه أحمد .